الصحف السيّارة والمجتمع الانساني

للمعلم الفاضل واللغوي الاديب سعيد افندي الشرتوني

هذا مَبحث خطيرُ الشأن فسيح الميدان بعيد الأمد يُعيي نحولَ اهل اليراعة استيعابهُ في المقالة والمقالتين اللهمَّ الّا أن يُفرد لهُ سفر برمّته ينتظم اصلهُ وفروعهُ وورقهُ وثمرهُ ولكنهُ والهفاهُ مما يضيق نطاقُ الحال عنهُ لهذا الزمن. ومن ثمَّ أقتصر منهُ على ما يكفي لبيان ما بين الصحُف السيّارة والمجتمع الانساني من علائق الوفاء والغَدْر والنفع والضرّ فاقول:

أوّلاً الصحف السيّارة ضياء يَكشف لاهل كل بلدٍ حالة الكون برمّته دانيهِ وقاصيهِ من خِصْب او مَحْل. وسِلْم او حرب. وصحّة او مرض. وعدل او جور. ورقّة او جفاء. وعلم او جهل. وتقدُّم او تأخُّر. حتى كأنَّ العالَم بجملتهِ يتمثَّل لعين المطالع بضورة ما هو عليهِ وهو لم يبرح منزلهُ. فيالها من فوائد جزيلة عميمة تترتّب على مثل هذه المعرفة للسياسة والتجارة والصناعة

وثانيًا ان تلك الصحف السيّارة بمثابة النُذُر والمرشدين والمعلّمين الذين يضربون في الارض لإنذار المتهوّر وارشاد الضالّ وتعليم الجاهل وتنبيه الغافل. فيتعيّن عليها أن تحاكيهم علمًا وتراهةً وغيرةً وحكمةً كما ينبغي ان تضاهيهم طلاقةَ لسانٍ وحسنَ بيانٍ لتنصب لهم من المحاسن اللفظية حبائل الهيام باللطائف المعنويّة او لتقودهم بزخرفة الاعراض الى اقتناء الجواهر فيلجّ بهم الغرامُ بها على الاقتخار بطاعتها والائتمار باوامرها والانتصاح بنصائحها. وعندها تبدو لهم حلاوة منافعها وتغيض عليهم ينابيع فوائدها فتطلع في اقاليمهم شموس معارفها وتمتدّ فوقهم سُرادق الامن من فضل مَراشدها

وثالثًا ان لم تكن تلك الصحف معمورة بدُرر المباحث ولا مأهولة بالطرائف كانت كالشجرة الورقة لا ثمر فيها فيولّيها القوم صفحة الإعراض ولا تلبث ان تجفّ. فان الصحف المشار اليها اشبه بمجيّ حياتهُ إقبالُ الناس عليهِ ونضارتهُ شدّةَ الرغبة فيهِ وروعةُ جمالهِ وقوفُ القوم عند كلامهِ. ووفاتهُ إعراض الناس عنهُ وشحوبُ وجههِ قلّة الاحتفال بامرهِ

ورابعاً ان هاتيك الصحف تتنزّل من المطالعين منزلة العيون والانهار التي تشرب منها القرى والمدن فان اذاعت لا سمح الله من التعليم ما يضعضع اركان الاطمئنان البشري او نشرت (والعياذ بالله) ما يفكّ قيود الحرمة للرؤساء ويدفع الناس للجرأة على من تعلو مفارقهم التيجان وتقبض بنانهم الصولجان أمرضت الألفة البشرية وكانت المبادئ المدسوسة فيها كموادّ سامّة يُلقيها عدوّ في عين قرية فما هو الّا قليل حتى يُنادي الغُراب على قطّانها بفراق الحياة. فان لم يُعرَض عن تلك العين للحال صارت القرية بلدةً لا أنيس بها

فهذه اوربّة التي انتهت من النجاح في العلم والصناعة الى أمد قصيّ قد أصبحت كلها حال كونها غاصّة بالعساكر والجنود ترتجف قلقاً من جماعة الفوضويين وذلك انّ ملوكها كانوا يهشّون يوماً لمن يسُنّون ينابيع المدائن والقرى اي لمن ينشرون ما يُضعف العقائد الاساسيّة من مثل قولهم « أن لا دار للانسان بعد هذه الدار. وأن ليست السلطة حلقةً من سلسلة النظام الالهيّ الموضوع لهذا الكون ». وانّما ستروها عن عيون رجال الملك بما سدلوا فوقها من سجوف الانتقاد على رؤساء الدين وعبارات الاستخفاف بواضعه. على ان الاغتيالات الفوضويّة قامت تنبّههم اليوم الى عَقد مؤتمر على اعداء الألفة يرومون من ورائه كَبح جماحهم بل استئصال شأفتهم وليست الفوضويّة الّا من ثمرات ما استفاض في الصحف الاوربيّة من إغراء الناس بهدم سور الألفة وبعبارة أخرى بكسر قيود الديانة ام الطمأنينة

فيا ليت شعري من الذي يجرؤ في بيروت مثلاً ان يشرب قدحاً من ماء نهر الكلب وقد خُبّر. ان رجلاً ألقى كميّةً كبيرة من الموادّ السامّة في مغارة جميتا مَنبع ذلك الماء. قلت: لا احد لكن من الذي يزجر نفسهُ عن مطالعة كتب او صحف سيّارة تهدم مباني السلام وتدمّر مصانع الاطمئنان وتقتلع أُصول الراحة وتصبّ على المجتمع الانساني سيولاً من النِقَم وتنادي عليه بالويل والثبور. وتواري لذّة عيشه اوحش القبور. قلتُ هنالك جماعة لكنهم غيض من فيض بالقياس الى العدد العظيم الذين يَردُون تلك المياه المسمومة بعلّة علميّة او فكاهية كما يزعمون

وخامساً اذا أمعنتَ النظر فيما قلتُهُ اعظمتَ قدر الكُتُب السليمة من ذعاف الألفة البشرية وأجللت شأن الصحف التي تنشر الفوائد العلمية غير مشوبة بما يستفزي القلب

ويهيج ساكنَ الشهوات فيه حتى يذهب في طريق تسرُّ أوائلُهُ وتسوء أواخرُهُ او يمرّه على العقل بكلام يُخرج مُخرج الهزل حتى يَضحك لهُ من يُجرَح بمدْيته كقول واحد من منشئي هذا القرن في إبطال خلود النفس قال: « كنت اذهب في امر النفس الى ما تذهب اليه الفلاسفة من ان كلّ ما لهُ ابتداء لهُ انتهاء حتى قرأتُ تعليلات النجاة فجزمت بخلود النفس ». او بكلام يأتي به مزيّنًا بوَشي من المغالطة كقول عمرو بن لُحي وقد اراد ان يحمل الناس على اكل الميتة: « كيف لا تأكلون ما قتل الله وتأكلون ما قتلتم ». فبنظائر هذين المثالين يدبّ الداء الى ما في صدور العوامّ من التعاليم الكافلة بسلامة الألفة البشريّة فيأخذ سلطةَ الرؤساء الضعفُ ويعبث باوامرهم الاستخفاف وتلك هي الطامّة العظمى والبليّة الكبرى التي تُزلزل اركان النظام البشري وتبث (والعياذ بالله) المبادئ الفوضويّة على سطح الكرة الارضيّة

فاعلم يا ارشدك الله انهُ ان لم يقف بازاء تلك المنشورات التي هي كالغادة المشئومة منشورات أُخر تبثّ في البلاد اشعّةً من ضياء ألباب العلماء وتتعقّب بالتفنيد ما يذاع من الاغلاط ممّا يتلقّاهُ سواد المطالعين تَلقّي الحقائق المقرّرة على مثل ما تفعل الصحف الصحيحة القواعد « كمجلّة المشرق » المنبثقة من بحر الفضل المتبعثة من لظى الحميّة الادبيّة الطالعة من مطلع العلم العالية المقاصد الصافية الموارد فان لم يكن ذلك اصبح الرؤساء الذين تنحني امامهم الرؤوس بايجاب الشريعة ضعافَ الكلمة لا يؤثر لهم ارشاد ولا تنجع لهم نصيحة

فلا جرم انّ نشرَ هذه المجلّة الحافلة بما يشوق ويروق من الابحاث العلميّة والادبيّة يدٌ بيضاء للرهبانية اليسوعيّة حريّة ان يهشّ لها المشرق كما يهشّ للحبيب ساعة اللقاء بل جديرة ان تكون منتجع ادبائهِ وشرعة شبّانهِ. ومُستراد الصُبابة من سكّانهِ. فهي المورد العلميّ العام المُجمَع على استعذابهِ عند جميع من تقلّهم الآفاق العربيّة وتُظلّهم سماء الممالك المحروسة العثمانيّة